رابندارات تاجور

Rabindranath Tagore

فيلسوف الهند الفذ ، وشاعر البرهمية الكبير (١)

بقلم الأديب المجدد الأستاذ على محمد البحراوى

---

(١)

يعانى القارىء المصرى فى دراسة تاجور صعوبات شتى . فليس فى مصر رابطة أدبية قوية تعنى بتتبع الحركات الأدبية العالمية حتى ولا مكتبات منظمة تغنو قارئها بما ينتجه الأدب الغربى الحديث من مختلف المباحث فى شتى نواحيه وفنونه . فلا يكاد المرء يظفر بكتبه المنشودة هنا دون عناء كبير .

وما بين يدينا الآن من آثار تاجور بالعربية لا يشبع نهم قارئه وإن زاده شوقاً إلى متابعته ولقد لا نجد أمامه مع ذلك إلا الضحية Sacrifice والروايات القصيرة الاخرى التى نقلها الى العربية الأستاذ اسماعيل مظهر . والاتصة ، البيت والعالم The Home and the world وقد ترجمها المرحوم طانيوس عبده ، ثم كتيباً صغيراً عن تاجور أصدره الأستاذ محب الدين الخطيب .

ولن يوفق القارىء المصرى إلى غير هذا ، وإلى غير طائفة من المقالات المبعثرة التى كانت تنشرها الصحف عن تاجور أيام زيارته لمصر أو فى فترات مختلفة بعد ذلك . وقد يعثر على نسخة انجليزية من رواية ، شترا Chitra ، وقد سمعنا أن أحد الأدباء عنى بترجمتها ولكننا لم نعثر على هذه الترجمة بعد ، أو نسخة انجليزية أيضاً من ، سادهانا Sadhana ، وهى تحوى بعض خواطر لتاجور فى الحياة . أما بقية آثار تاجور فلم ينقل منها إلى العربية شىء للأسف ، مع أن بينها ما هو أجدر باطلاع القارىء

---

(١) نعتذر عن وضع هذا المقال الطريف فى هذا الموضع من العصور . فقد وصلنا متأخراً وحرصنا على نشره فى هذا العدد ساقنا إلى هذا

المصرى مثل قصة « ماشى Mashi أو رواية عجلة الربيع The Cycle of the Sprinh »، أو رواية « الحجارة الجائعة Hungry Stones »، أو غيرها من آثار تاجور الكثيرة الاخرى فالقارىء المصرى لا يعرف عن تاجور شيئاً كثيراً . . بل انه قد لا يعنى بقراءته عنايته بشكسبير وبرجسون والمتنبى والمعرى وغيرهم من الذين لا تمت اليهم بصلة أوثق من تلك التى تربطنا بهذا الفيلسوف الشرق المعاصر ! . .

ولعمرى إذا لم نعن نحن الشرقيين — أقصد المصريين بالتحديد — بدراسة الحركة الفكرية فى الهند وتفهم مرامى الفلسفة البرهمية التجريدية . . إذا لم نعن نحن بهذا، فمن ننتظر فى الشرق العربى أن يعنى به قبلنا أو بدلنا ؟ !

(٢)

لعل أول ما يبهرك من تاجور تلك الدعوة العميقة الحارة إلى الاخاء العالمى والتعاون الانسانى العام ، فتاجور الشرقى الذى راعه تقدم الغرب السريع يرسل اليه بنظرة يتعرف بها سر عظمته ونجاحه وتقدمه ، فيعود منها مقتنعاً بأن ذلك لم يتم إلا بروح التعاون السائدة فى حياة الغربيين الفكرية والأدبية والفنية والعلمية ، واثقاً أن الشرق البائس — بلاد الطلاسم والتمائم ومهبط الوحى والأديان — لن تقوم له قائمة حتى يترك التناحر على الحياة من كل نواحيها الأدبية والمادية .

ويرى تاجور أن الرقى الحقيقى لن يكون بتعاون الافراد فحسب ، بل بتعاون الجماعات أيضاً ، وبتحكيم العقل البشرى المجرد فى الأعمال التعاونية المشتركة ، وأن واجبنا نحن كشرقيين هو أن لا نقنع باحياء التقاليد القومية ، بل أن نخلق أيضاً نشاطاً أدبياً مشتركا تتعاون على توسيع مبادئه القويمة .

قد يكون هذا هو الذى يدفع تاجور إلى دعايته الانسانية التعاونية ، وقد يكون ذلك أيضاً من آثار نزعته البرهمية التى يقول بأنها تصور الحرية بكمال الاتصال بما يحيط بها ، فاذا تقلص هذا الاتصال الكامل من إحدى نواحيه تقلصت معه الحرية ! والهنود يؤمنون بشىء لانهائى يعتقدون أنه سر الوجود وانه يخلو من أى معنى للعدم، وأن غايته تدفعهم إلى التماس حريتهم فى اللانهائى الكائن على أنه « حقيقة ملموسة مفهومة » . وهو يرى أن المعنى الحقيقى للروح ، الذى تتحراه فلسفة الهند ، إنما يكون

من طريق إنكار النفس لا الشيء إلا لحب النوع الانسانى وخيره ، ويستشهدون بقول اليوبانيشاد :

« أنك لا تحب طفلك لأنك ترغب فيه ، ولكن لأنك فى الواقع ترغب فى روحك أنت »

وقد يكون هذا المعنى أقرب الفروض الأخرى إلى ما تريده نفس تاجور ويظهر أنها تردده فعلا حتى لقد قال هو فى موضع آخر :

« إن الابن ليس عزيزاً على أبيه لذاته ، ولكن لأن الأب يرى فيه امتداد نفسه ، ويرى فيه خلود حياته لأجيال مقبلة » !

ولم لا يكون هذا ؟ ألست ترى أن حبة القمح تنشأ من حبة مثلها قد نشأت من حبة قبلها وهكذا دواليك ألست ترى أننا فى نظام الحياة كذلك حبة من القمح ، تتصل بيننا الحياة الروحية اتصالها فى حبات القمح جميعها ؟! وألست ترى أن تاريخ الانسان هو تاريخ تشييد الانسانية العالية كلها ، وهل أدل على ذلك من أن أعمال الانسانية العظيمة ملك تقسمته بين الانسانية جمعاء ؟

(٣)

قد يكون من التعسف الغريب أن نعيب فكرة التعاون والأخاء الانسانى التى ينشرها تاجور الآن زاعمين أنه يخدم بهذه الدعاية السياسة الاستعمارية ، وأن فائدتها إنما تعود على الأمم القوية المسيطرة على الأمم الضعيفة ! فان تاجور لا يدعو إلى مذهبه الهنود أو سكان المستعمرات وحدهم ، ولكنه يعنى بنشر مذهبه فى أوربا كلها وفى العالم الجديد معتقداً أنه قد يجد فى الأمم القوية المتحضرة كثيراً من الأنصار المفكرين. ثم إن فكرة الأخاء والتسامح والتعاون الانسانى إن أمكن أن تقنع بها الأمم الغاصبة أيضاً هان الأمر ، وأمكننا أن نجد ولو تدريجاً حلا معقولا لمعظم القضايا السياسية الكبيرة المعقدة !

وليس من الحكمة ولا من المعقول أن نرفض مثلا الاصغاء إلى دعاية التعاون والأخاء فى الشرق لأننا نعتبرها — إذا تمكنت منا — سلاحاً من الأسلحة التى تستفيد منها الأمم القوية ، ونطلب إلى تاجور ومدرسته أن يبدأوا بتنفيذ دعوتهم هذه فى لندن

وباريس وروما، وأن تأخذ بها وزارات الحربية والاستعمار فى تلك البلدان ثم نصغى لها نحن بعد ذلك ، فذلك ضيق تفكير وتعصب غريب ! فان تاجور لا يقصر فى نشر مبادئه فى لندن وباريس وروما بل هو يعمل لذلك ويسعى إليه بنفسه ، ثم ليس لنا أن نرفض دعوة انسانية عالمية لأن إيطاليا مثلا لا تفتأ تحشد جندها وتشحذ أسلحتها لاستثمار مستعمراتها وضم مستعمرات جديدة ، أو لأن الانجليز لا يزالون يحتقرون الهند ويرفضون أن تجمعهم بهم عربة واحدة من عربات السكة الحديد ، لأن خطأ سوانا وتعسفهم لا يبرران خطأنا وتعسفنا

وإنما وسعنا أن نصغى إلى هذه الصيحة النبيلة التى تدعو فى حرارة وحماسة الى الأخاء والتعاون الانسانى ، وفى استطاعتنا أن نعجب بمبادئها وأن ندعو معه اليها فى يقين وثبات . ولا شك أن صيحة الأخاء والسلام العالمى ستفتح يوماً كل قلب مغلق لها أو متغافل عنها !

* * *

ولا ننكر مع هذا أن تاجور قد خاب أمله فى أوروبا ، فقد كان يحسب أنه سيقع على أرض يجاهد كل حى فيها فى سبيل المثل العليا ، ولكنه وجد الناس أشد انصرافاً عن الآلهيات والروحانيات وأكثر ميلا إلى ماديات الحياة ومنافعها الحيوية

توقع أن يرى فى الغرب تطلعاً إلى الحقيقة المعنوية فوجد جشعاً فى الزيادة والضخامة ، وعاد يتخذ من ذلك دليلا على افتقار الغرب إلى العظمة المعنوية !

ويقول تاجور إنه « إذا لم يستطع الانسان أن يدرك وحدة الانسانية . فان هذا النوع من الهمجية الذى يسمونه بالمدنية الغربية سيظل قائماً » !

ولا يمكن إن نقول أن تاجور يؤيد مطامع المستعمرين العتاة وهو الذى يجزع حين يرى أن الروح الاستعمارية النفعية تصبح فى نظر الغربيين ضرباً من الدين ، ويشعر من ذلك بالخطر يسود العالم لأنها تجعل الشرق تحت رحمة الغرب ، ويقول إن « من الحماقة إن لم يكن من الاجرام تأييد المدنية بعنف حيوانى » .

ولا نظن أنه من السهل أن ينسى إخواننا الذين يقومون على مذهب تاجور الانسانى ويجزعون على أثره فى الأمم الضعيفة أنه قد رد إلى حاكم الهند وبالتالى إلى

امبراطورها اللقب الذى أنعم به عليه الامبراطور ، وكتب إليه يستنكر ما كان من عنف السلطات الانجليزية فى إخماد الحركة الهندية الوطنية فى البنجاب !

(٤)

يدعو تاجور إلى مبادئه فى حرارة وقوة إيمان . لا يفزعه أن يرى صيحاته ودعايته إلى مبادئ الاخاء والتعاون تطويها جلبة الحياة المادية فى اوروبا ، فيعود إلى وطنه ولم يتطرق اليه شئ من الوهن بل يزيد اعتقاده فى أن اوروبا ستضطر يوماً — بعد أن تنهكها المتاعب المادية الجشعة — أن تتطلع إلى الشرق . إلى آسيا كما يقول . لتستطلع النور الجديد الذى يقودها فكرياً وينقذها من أغلال هذه الحياة المادية التى تغمرها إلى عنقها !

نعم ، يعود تاجور الى وطنه ليقرر أن تقدم العلوم الطبيعية قد مهد سبيل الالحاد لجماعة المتعلمين . وأنهم نبذوا الأديان بين الشك والانكار ، ولكنه يعتقد مع هذا أن نفوسهم لا شك ستئم هذا الالحاد إذا ما طال أمده ، وستنشد الطمأنينة فى الأديان والتعاليم الروحية

وهو لذلك يترك أوروبا تقطع بقية شوطها المادى ، ويعود إلى مدرسته الهندية يتأمل فلسفته التجريدية ، على أن يلتفت إلى أوروبا متى قطعت شوطها وتطلعت إلى النور الجديد ! لا بد أن تبحث أوروبا يوماً عن الطمأنينة الفكرية والروحية بعد أن تمل هذه الحياة المادية الحقيرة . . فليس من عظائم الأمور مثلا أن يعالج الانسان الكهربائية ويفهم أسرارها ويستخدمها . وليس من العظمة أيضا أن يصنع الانسان عدداً من السيارات أو غيرها ، فتلك أعمال لها قواعد خاصة من السهل معرفتها وأدائها ولكن من ذا الذى يسبر غور الانسان ؟ أيمكن أن يدرس الانسان تكوينه الجثمانى . ولكن هل حاول أن يعرف تكوينه الروحى ؟ ! . .

يقول تاجور إن الآلة الحاسبة أصبحت أقدر من عشرة رجال ، وان غرض المدنية الحاضرة يشمل دراسة كل شئ إلا الفكر الانسانى وإلا النفوز الانسانى ، فانهما مهملان فى ظل المدنية الغربية !

ويجمل رأى تاجور أن أوربا قد فقدت تماماً كل سيطرة لها على آسيا ، وذلك

لأنه لم يعد عندها شيء روحي تستطيع أن تمد به آسيا التي كانت تنظر إليها في سنوات ماضية نظرة تقديس بينما تراها الآن لا تعرف معنى الصدق !

(٥)

في رواية « الضحية Sacrifice » التي عربها الأستاذ اسماعيل مظهر بحث ممتع في معتقدات البراهمة تتجلى لك فيه جلياً تلك الروح التجديدية الإصلاحية التي يحاول أن يدعم بها تاجور البرهمية حتى تجاري العصر وتأخذ مكانها بين الديانات الحية الأخرى، « ترى أيضاً كيف يريد أن يفهمها تاجور بطريقة أخرى عالمية! فأنت تشهد الستار يرفع عن الملكة « جونافاتي » في المعبد تسترضي الآلهة وتسألها إن كانت قد أغضبتها حتى حرمتها الأبناء بينما هي لا تضن بهم حتى على المتسولات والباغيات، وتهيب بها في شبه غضب عن الجرم الذي اقترفته حتى تحرمها عاطفة الأمومة !

ثم إنك إذا تتبعت ما يوجه إلى هذه الآلهة من مختلف أبطال القصة فسترى الفتاة « أيارنا » التي اغتصب منها عنزها ليقدم ضحية للأم العظيمة تسائل النصب في حدة عما إذا كان لا عمل لها « أي الآلهة » إلا أن تسلب من فتاة فقيرة مثلها ما تحب !

ثم إنك قد تعجب إذ ترى تاجور يطلق على لسان الملك « جوفندا » هذا القول : « إن دم المخلوقات ليس وقفاً على ضحايا الآلهة، ولي من حق الملك كما أنه من حق أحقر فلاح أن يحافظ على الحق وأن يدافع عن الاستقامة ما يبوش سبيلها »

ثم ترى « جاسنج » يخاطب الآلهة في ذهول وقد أبلغه الكاهن رغبتها في قتل الملك يد أخيه :

« أيتها الأم ! أليس لديك سيفك القاطع لتنفذي أنت يدك القوية ؟ ! » فتاجور يسخر في هذه الرواية من عادة ذبح الضحايا وتقديم القرابين للآلهة .. وهو يثير في الملكة عاطفة الأمومة المحرومة منها فتكثر من ضحايا للآلهة حتى تعطف عليها ولد، ويرسل الفتاة « أيارنا » صاحبة العنز الضحية لتواجه الملك بسخريتها من آلهته فتترك له فرصة التفكير في منع هذه الضحايا، ويصدم ذلك اعتقاد الكاهن « راجوباتي » الذي يبذل كل جهده ليحمل الملك على الرجوع عن أمره هذا واستئناف تقديم الضحايا، ولكنه لما يجد مساعيه من هذا السبيل تذهب أدراج الرياح يعمد إلى الثورة

والى إثارة الناس وتأليب الجند على الملك . ولما لا يفلح أيضاً يلجأ إلى الدسائس فيحاول أن يثير الغيرة ويحرك مكامن الطمع فى صدر أخى الملك « نكشاترا » ليحمله على قتله، ولكنه يفشل أيضاً . . فيفزع إلى تابعه « جاسنج » يريد أن يحمله على قتل الملك ويوهمه أن الآلهة غاضبة ولا يمكن أن يهدأ غضبها بغير دم ملكى . ولكن الفتى التابع يضطرب فكره ويقع فريسة عاملين . حبه للملك وتقديسه للآلهة . ويظل مدة مترددا ولكنه أخيراً يوفق إلى حل معقول فى نظره فيلتمس لنفسه نسباً ملكياً ثم يقتل نفسه حتى يهدى دمه الملكى من غضب الآلهة . وهنا يفيق من غلوه وتعصبه عند مايرى فتاه بين يديه قتيلا . فيذهب الى الآلهة ساخطاً يسألها فى غضب أن ترد اليه فتاه، ولكنها لاتجيب طبعاً، فيشتد غضبه ويلقى بها الى الأرض !

وتجىء الملكة مسرعة تريد أن تقدم ضحاياها حتى تفوز بالولد وتفقد مكان الآلهة ثم تسأل الكاهن عنها . فيجيبها فى سخرية غاضبة :

« آلهة ! إذا كانت فى أطراف الدنيا آلهة حقاً وصدقا فهل فى مستطاعها أن ترتكب كل هذه الموبقات لتلطخ إسمها بالعار » !

ثم يذهب إلى الملك يحمل إليه مصرع « جاسنج » فاذا سأله عن السبب أجاب :

« ليقتل الأوهام التى تمتص دم الحياة الانسانية ! »

(٦)

لم نعرض إلى الآن لآراء تاجور الآلهية لأنها محور الفلسفة الهندية التى يدين بها ويدعو اليها ، ولا نحب أن نفرغ من هذا البحث قبل أن نعرض لآرائه الاجتماعية والفنية الأخرى .

فالجمال مثلا عند تاجور هو « ادراك الحقيقة كما هى » ، وهو يعتقد أن الحقيقة من حيث هى جمال لا يعدله جمال . ويضرب لذلك مثل العجوز التى لا تسمى جميلة إذا استطاع المصور الفنان أن يرسمها كما هى ، ويكون فى الرسم إذ ذاك معنى الجمال لأن المصور أدرك الحقيقة واستطاع أن يعبر عنها برسمه .

وهو يرى أن الفلاسفة انما يخطئون فى تحديد الجمال وتعريفه ، لأن الساذج يراه

فى البحر المضطرب الموج ، وفى السماء الصافية أو الغائمة ؛ وأن الذى يراه ذلك السائح هو الجمال حقيقة ، أما التحديد والتعريف فليسا فى شئ منها !

ولتاجور فى الموسيقى رأى ممتع ومعقول : فهو يذكر أن المرء إذا سمع موسيقى لم يألف سماعها ضايقه توقيعها وقد يعذبه أحياناً ، لأن نظامها لا يجد من نفسه ذلك الشعور الذى تحركه الموسيقى ، وذلك لأنه يعرف ما ذا تمثل الألحان التى يسمعها ومعرفة الموسيقي لاتقتصر على فهم « النوتة » أو الترقيم ولكنها فى مدلول التوقيع فان الالات الموسيقية لا تحرك الشعور وإنما يحركها ذلك التيار الذى يسرى من مصدر النغمات الى روح المنصت. فالذى يهتز للموسيقى هو الذى يحس ما تمثله الالحان من تأثيرات روحية .

وفى قصة « البيت والعالم .The Home & the World » وصف طريف للطبيعة أرسله تاجور على لسان « ساندیب » زعيم الحركة الوطنية الهندية :

« وما الطبيعة الا غادة حسناء لاتعرف معني العفاف ، ولكنها لا تستسلم الا لمن كان لصاً لأنها تحب العنف والاختطاف . ولكنها لا تمنح زهرة من رياضها للمتزهين ! ويرى تاجور أن الحب ، انما هو كالحشيش الأخضر وكالاشجار ، والموسيقي الحياة ، كلها أشياء ينعم بها سطح الأرض ، وهى تأتى وتفنى كالاحلام » ؟

وهو يذكر على لسان « أبارنا » فى « الضحية » وهي تخاطب الاله :

« أنا نجرى وراء الحب ، ونموت فى الجوع والتسول بحثا عنه وعلى هذا فهو يأتيك غير مطلوب ولا مرغوب فيه ولو أنك فى غير حاجة اليه » !

و يرى تاجور أيضاً أن الحب « إذا فشل حيث ينتظر أن ينجح ، تنكر بثوب الغضب » ، وأنت ترى انها آراء تكاد تكون مألوفه ترمى معظمها فى تلميح أو تصريح إلى أغراض روحيه براهمية تملك على تاجور كل فكره وشعوره ، وكلها تتسم بسمه التسامح وحب الجمال والاخوة الانسانية .

سنتحدث الآن عن رأى تاجور فى المرأة ، لغز الحياة ، وقد بحثت معك رأيه فى الجمال وفى الموسيقى وفى الطبيعة وفى الحب موضوعات كان ممكن أن يكون تاجور موفقاً فيها أكثر من موضوع المرأة وكنت أحسب ذلك فى أول الأمر فأعير آراءه عن المرأة انتباها

سطحياً لأنه شرقي وقلما يوفق الشرقي إلى دراسة المرأة أو إبداء رأي ناضج عنها!
ولكني عجبت لما رأيت تاجور فيلسوف البرهمية يتحدث عن المرأة في عقل وحكمة وينتزع أحكاما صائبة لاشك أنها نتيجة تجارب كثيرة

ولا شك أن عجبك سيبدأ كما بدأ عجبي إذ تقرأ له هذه العبارة على لسان الملك البرهمي « جوفندا » في «الضحية»:

« إن ابتسامة المرأة تذهب بكل لعنة من البيت، أما حبها فرحمة من الله »

ثم انك لن تتمكن من إخفاء إعجابك إذ تقرأ لتاجور معي:

« إن غضب المرأة كلألاء الماس، يضيء، ولكنه لا يحرق »

ولعمري إنها من أصوب وأحكم ما يمكن ان يتحدث به عالم اجتماعي كبير!

وسترى معي أن تاجور درس نفسية المرأة وتفهم أكثر طباعها وميولها عندما تقرأ له قول الملكة «سوسترا» للملك «فكرام» وقد بالغ في إظهار حبه في رواية الملك والملكة»:

« انما يكون حبك لي ثابتاً صحيحاً إذا أنت لم تذهب إلى حد المبالغة والافراط لانه من المستطاع أن يكون الحق بسيطاً ساذجاً »

فيجيبها الملك «فكرام»!

وقلب المرأة من أحاجي الحياة الاجتماعية في كل العصور. ولم يفهمه الملك فكرام حقيقة. ولكن تاجور استطاع إلى حد ما أن يفهمه وأن يدرس تقلباته ويرسم لنا صوراً منها في رواياته المختلفة انظر إلى هذه العبارة التي ساقها على لسان «بمالا» في قصة «البيت والعالم»:

« إن سعادة المرأة الحقيقية هي أن تحب. فاذا قضيتم على كبريائها في هذا الحب قضيتم عليها». هذا حسن! لتكن سعادة المرأة في الحب، وليكن في القضاء على كبريائها فيه قضاء عليه أو عليها. ولكن هذا الكبرياء..... ألا يمكن أن تحددها أفكار النساء الصغيرة؟! وتتجلى لك دراسة تاجور لأفكار المرأة الشرقية من المحاورة الآتية المنقولة عن «البيت والعالم»، وقد دارت بين «بمالا» «وزوجل المهراجاء» حين طغت نهضة مقاطعة البضائع الأجنبية في الهند —:

هي — إني أريد أن أحرق جميع ما عندي من الملابس الأوروبية.

هو ــ لم تحرقينها وأنت تستطيعين أن لا تلبسيها ؟

هى ــ انى لا ألبسها وأنا على قيد الحياة .

هو ــ لا تلبسيها ، ولكن أية فائدة من إحراقها ؟

هى ــ لماذا تحاول منعى عما أريد ؟

هو ــ وأنت لماذا لا تبنين بدلا من أن تخربى ؟

هى ــ ان الاندفاع فى التخريب يثير همتا فى البناء !

هو ــ انك كن يقول لا أستطيع انارة البيت الا اذا أضرمت النار فى جوانبه !

فانت ترى كيف يصدر لك تاجور عقلية المرأة ويتركها تسلك طريقا طبيعياً لا يحاول أن يخرجها منه ، وإن توخى شرح آرائها واندفاعها بشكل لا يمكن أن تقول انه غير مألوف !

ولعل العبارة الآتية تشرح موقف المرأة الشرقية الآن أو على الأقل وأى تاجور فيه بمالا ــ إن أفكار النساء صغيرة معوجة.

زوجها ــ ليس ذلك ذنبهن ، ألا ترين أن أقدام الصينيات صغيرة فما الذى صغرها غير الضغط عليها منذ الحداثة ؟ ،

ولست أود أن أعلق على هذا الرأى الآن ، فلعله أبلغ ما نختم به هذا البحث الذى كاد يتعدى المقرر له ؟

على محمد البحراوى